مأساة الحلاج

في الفصل الثاني من مسرحية « مأساة الحلاج » (١) مشهد ثلاثة قضاة ، هم ابو عمر الحمادي وابن سليمان وابن سريج ، يحاكمون الحلاج في سجنه :

***

الحلاج
لستم بقضاتي
ولذا لن ادفع عن نفسي

ابن سريج (للحلاج)
يا حلاج
لا تدفع عن نفسك
بل حدثنا عما فيها
ان كان هو الحق ، عرفناه معك
واذا كان الباطل
نبهناك اليه
واخذناك بجرمه ..

الحلاج
اوعدتم ان كان الحق ...
ان تمضوا فيه معي ؟

ابو عمر
نمضي فيه معك .. ؟
اما انك رجل ساذج
او انك اذكى مما نتصور
ولهذا افسدت صعاليك العامه
وعلى كل ، لا ضير
قد نصبح من اتباعك (ساخرا)
من انت ، وما خطبك ... ؟

الحلاج
انا رجل من غمار الموالي ،
فقير الارومة والمنبت
فلا حسبي ينتمي للسماء ،
ولا رفعتني لها ثروتي
ولدت كالاف من يولدون ،
بالاف ايام هذا الوجود
لان فقيرا ـ بذات مساء ـ
يسعى نحو حضن فقيره
واطفأ فيه مرارة ايامه القاسيه
نموت كالاف من يكبرون ،
حين يقاتون خبز الشموس...
ويسقون ماء المطر
وتلقاهم صبية يافعين حزانى
على الطرقات الحزينه
فتعجب كيف نموا واستطالوا ،
وشبت خطاهم ...
وهذي الحياة ضنينه
تسكعت في طرقات الحياة ،
دخلت سراديبها الموحشات
حجبت بكفي لهيب الظهيره
في الفلوات
واشعلت عيني ، دليلي ،
انيسي في الظلمات
وذوبت عقلي ، وزيت المصابيح ،
شمس النهار على صفحات الكتب
لهثت وراء العلوم سنين ،
ككلب يشم روائح صيد
فيتبعها ، ثم يحتال حتى ينال
سبيلا اليها ، فيركض ، ينقض
فلم يسعد العلم قلبي ، بل
زادني حيرة واجفه
بكيت لها وارتجفت
واحسست اني وحيد ضئيل
كقطرة طل
كحبة رمل
ومنكسر تعس ، خائف مرتعد
فعلمي ما قادني قط للمعرفه
وهبني عرفت تضاريس
هذا الوجود
مدائنه ، وقراه
ووديانه ، وذراه
وتاريخ املاكه الاقدمين
واثار املاكه المحدثين
فكيف بعرفان سر الوجود ،
ومقصده ، مبتدأ امره منتهاه
لكي يرفع الخوف عني ، خوف
المنون، وخوف الحياة ،وخوف القدر
لكي اطمئن
سألت الشيوخ ، فقيل
تقرب الى الله ، صل ليرفع عنك
الضلال .. صل لتسعد
وكنت نسيب الصلاة ، فصليت
لله رب المنون ، ورب
الحياة ، ورب القدر
وكان هواء المخافة يصفر في
اعظمي ويئز كريح الفلا ...
وانا ساجد راكع اتعبد
فادركت اني اعبد خوفي ، لا الله...
كنت به مشركا لا موحد
وكان الهي خوفي
وصليت اطمع في جنته
ليختال في مقلتي خيال القصور
ذوات القباب
واسمع وسوسة الحلي ،
همس حرير الثياب
واحسست اني ابيع صلاتي
الى الله ...
فلو اتقنت صنعة الصلوات
لزاد الثمن
وكنت به مشركا ، لا موحد
وكان الهي الطمع
وحير قلبي سؤال :
ترى قدر الشرك للكائنات
والا ، فكيف اصلي له وحده
واخلي فؤادي مما عداه
لكي انزع الخوف عن خاطري
لكي اطمئن ...
(سكتة)
كما يلتقي الشوق شوق الصحارى
العطاش بشوق السحاب السخي
كذلك كان لقائي بشيخي
ابي العاص عمرو بن احمد ،
قدس تربته ربه
وجمعنا الحب ، كنت أحب
السؤال ، وكان يحب النوال
ويعطي ، فيبتل صخر الفؤاد

(١) تصدر هذا الشهر عن «دار الاداب»

ويعطي ، فتندى العروق
ويلمع فيها اليقين
ويعطي ، فيخضر غصني
ويعطي ، فيزهر نطقي وظني
ويخلع عني ثيابي ، ويلبسني
خرقة العارفين
يقول هو الحب ، سر النجاة ،
تعشق تفز
وتغني بذات حبيبك ، تصبح أنت
المصلي وانت الصلاه
وانت الديانة والرب والمسجد
تعشقت حتى عشقت ،
تخيلت حتى رأيت
رأيت حبيبي ، واتحفني بكمال
الجمال ، جمال الكمال
فاتحفته بكمال المحبه
وافنيت نفسي فيه

ابو عمر

صمتا .. هذا كفر بين !

ابن سريج

بل هذا حال من احوال الصوفيه
لا يدخل في تقدير محاكمنا
امر بين العبد وربه
لا يقضي فيه الا الله
لنسائله عن تهمة تحريض العامه
فلهذا اوقفه السلطان هنا
هل افسدت العامة ، يا حلاج ؟

الحلاج

لا يفسد امر العامة الا السلطان
الفاسد
يستعبدهم ويجوعهم

ابن سليمان

يعني ، هل كنت تحض
على عصيان الحكام ؟

الحلاج

بل كنت احض على طاعة رب الحكام
برأ الله الدنيا احكاما ونظاما
فلماذا اضطربت ، واختل الاحكام ؟
خلق الانسان على صورته
في احسن تقويم
فلماذا رد الى درك الانعام ؟

ابو عمر

ماذا يعني هذا الشيخ ؟
هل هذا ايضا من احوال الصوفيه؟
ام يستخفي خلف الالفاظ المشتبهه
كي يخفي وجه جريمته الشنعاء ؟
اني اسألك سؤالا محدودا
لتجيب جوابا محدودا
هل تزعم انك صوفي .. ؟

الحلاج

الله يصنفني حيث يشاء

ابو عمر

هل تزعم انك فارقت الدنيا
وشواغلها ؟ ..

الحلاج

ها انذا في الدنيا يا سيد
اشغل نفسي بالرد على اسئلتك

ابو عمر

هل ارسلت رسائل لابي بكر
الماذرائي وسواه
تدعوهم فيها ان ينتفضوا ،
ويهبوا ضد الدوله؟

الحلاج

الدوله .. !
لا اشغل نفسي بالدوله
بل اشغلها بقلوب احبائي

ابو عمر

تنكر .. ؟
يا حاجب ...
قل للشرطة يأتوا بالماذرائي

الحاجب

هرب الماذرائي من بغداد يا مولاي
وكذلك حمد الطولوني والقنائي

ابو عمر

منذ متى .. ؟

الحاجب

من يومين
مذ انبأهم جاسوس بالقصر
عن قرب محاكمة الحلاج

ابو عمر

كيف عرفت .. ؟

الحاجب

انبتني الشرطة يا مولاي

ابو عمر (للحلاج)

احسبك الان ستمضي في انكارك
لكني من نطقك سأدينك
هل ارسلت رسائل ؟

الحلاج

قطع من قلبي اهديها
لقلوب احبائي ...

ابو عمر

ماذا فيها ؟

الحلاج

تذكير لهم أن الانسان شقي
في مملكة الله
لم يبرأنا الباري ليعذبنا ،
ويصغرنا في عينيه
بل ليرانا ننمو ، وتلامس جبهتنا
وجه الشمس
او نمرح تحت عباءتها كالحملان
المرحه

ابو عمر

لم ارسلت اليهم برسائلك المسمومه؟

الحلاج

هذا ما جال بفكري
عاينت الفقر يعربد في الطرقات
ويهدم روح الانسان
فسألت النفس :
ماذا اصنع ؟
هل ادعو جمع الفقراء
ان يلقوا سيف النقمه
في افئدة الظلمه ؟
ما اتعس ان نلقي بعض الشر
ببعض الشر
ونداوي اثما بجريمه
ماذا اصنع .. ؟
ادعو الظلمه
ان يضعوا الظلم عن الناس
لكن هل تفتح كلمه
قلبا مقفولا برتاج ذهبي ؟
ماذا اصنع ؟
لا املك الا ان اتحدث
ولتنقل كلماتي الريح السواحه
ولاثبتها في الاوراق شهادة
انسان من اهل الرؤيه
فلعل فؤادا ظمآنا من افئدة
وجوه الامه
يستعذب هذي الكلمات
فيخوض بها في الطرقات
يرعاها ان ولي الامر
ويوفق بين القدرة والفكره
ويزاوج بين الحكمة والفعل ..

صلاح عبد الصبور